

المحاضرة الثانية عشرة: الأدب المقارن والبعد الثقافي

التفاعل والتحاور والاحتكاك بين الحضارات أمر لا مفر منه، خاصة إذا تعلق الأمر بالمعارف والعلوم، وما دام هناك احتكاك فهناك ثقافة.

1. تعريف الثقافة Acculturation

لم يتفق النقاد على تعريف محدد لمصطلح الثقافة، ومنها: أخذ الثقافات والآداب بعضها عن بعض؛ بُغيةً التجديد والتطوير والتحسين، ومعروف أنه لو بقي الماء في مكانه دون حركة ودون تجدد لصار ركدًا تعافه الناس بل ضارًا يؤذي.

وهذه الثقافة من شأنها أن توسع الأفق، إذ ترينا كيف أن الأذواق والأوضاع والقيم الأدبية تختلف من أدب إلى آخر، ومن أمة إلى أخرى، استعمل هذا المصطلح منذ 1880م، للدلالة على التداخل الحاصل بين مختلف الحضارات على مستوى التأثير والتأثر والاستيعاب والتمثل والتعديل والرفض... وغيرها.

ومن بعد الأبواب التي تدرج ضمن الثقافة باب الاستشراق.

2. الاستشراق في الأدب المقارن

أ. تعريف الاستشراق

لغة: كلمة الاستشراق مشتقة من مادة "شرق" واستشرق أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم.

اصطلاحًا: جاء في بعض المصادر اللغوية الحديثة استشرق طلب علوم الشرق ولغاتهم، والمستشرق هو عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه.

عرفه أحمد حسن الزيات "يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأمه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته، وأساطيره". ثم استغلاله اقتصاديا واستراتيجيا وجعله منطقة نفوذ له يسيطر بها على العالم بأسره.

ب. نشأته

ظهر مصطلح الاستشراق Orientalism في نهاية القرن الثامن عشر، فنشأت بحوث كانت تهدف للتصدي للإسلام، وتسعى لخدمة الغرب وإخضاع الشعوب المستعمرة، إلا أن الاستشراق ساعد على تعريف الغرب بالتراث العربي، فقاموا بترجمة "ألف ليلة وليلة" إلى لغاتهم، واهتموا بالبرديات

العربية، وبالقرآن الكريم، وبالحدِيث الشريف، ودرسوا شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهم المستشرق البريطاني رينولد نيكلسون والذي كتب "تاريخ الأدب العربي"، حيث عرض فيه نشأة الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى غزو نابليون 1798م، كما علل الكثير من الظواهر الأدبية، وتحدث عن تأثير الشعر العربي في الشعر الأوروبي، وبخاصة شعر التروبادور... وغيرها. والمستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير الذي انكب على دراسة المتنبي.

بعد أن ظهر الإسلام، بدأ الكتاب يقبلون عليه بين طاعن فيه فولتير يطعن في الإسلام وفي الرسول صلى الله عليه وسلم، ويصوره نبي في صورة المذل، وبين من حاول تقديم فضل علماء الإسلام في الطب والفلك والرياضيات... وغيرها، وذلك في حفظ تراث أرسطو وترجمته وشرحه ونقده.

ت. دوافع الاستشراق

1. رغبة الإنسان الطبيعية في الاطلاع على حياة الآخرين وأفكارهم، ورغبته الكامنة في نفسه للسيطرة على الآخرين.
2. الرغبة في نهب والسيطرة على خيرات عالم الشرق، لذلك راحوا يتعلمون لغته.
3. غزا الغرب الشرق غزوا ثقافيا الذي كان يرمي إلى إضعاف الشرق عامة والعالم الإسلامي خاصة ليقبله من جذوره ويزيله من وجوده.
4. لعبت الدوافع الدينية دورا خطيرا في نشأة الاستشراق وميلاد فلسفته، لأن الإسلام حاول أن يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، لذلك تعلم الرهبان اللغة العربية للدفاع عن عقيدتهم ومنع انتشار الاسلام.
5. محاولة الغرب السيطرة على الشرق وسحق قوته واحتلال أرضه واستغلال مقدراته.

ث. أثر المستشرقين

اهتم المستشرقون بالأدب العربي وبكل ما يتعلق به، حيث درسوا تاريخه وتطوره وقيمه وأصالته، وعصوره، ونهضته، وتأخره، وازدهاره، وانحطاطه، وانتحاله، وسرقاته، وأعلامه، وشعراءه، وذلك من أجل فهم الشخصية العربية.

المستشرق ديفيد مرجليوث

أثار المستشرق الإنجليزي ديفيد مرجليوث في عام 1925م قضية الشعر الجاهلي، في مقال له بعنوان "أصول الشعر العربي"، حيث أثار الشكوك حول هذا الشعر من خلال القول بأنه منتحل، وأنه قد أُلّف في عصر لاحق ثم نسب إلى الجاهليين، ونظرا لخطورة هذا الرأي لأنه يمس بإعجاز القرآن الكريم.

بنى مرجليوث فكرته انطلاقا من الأدلة التالية:

1. أدلة خارجية

أ. طرح مرجليوث فرضية إذا كان هذا الشعر صحيحا، فإما يكون قد حفظ مشافهة، أو كتابة. إلا أنه استبعد وصوله مشافهة لأنه توجد قصائد طويلة لا يمكن أن تحفظ إلا إذا كانت هناك مهنة حفظ ونقل الشعر مهنة أساسية، وهذا لا يمكن أن يكون.

ب. ذم القرآن للشعر مما جعل نسيان الشعر الجاهلي.

ت. غلب على الشعر الجاهلي الانتصارات القبلية وهذه ذمها الإسلام، مما سيجعلها تنسى إذا لم تسجل.

2. أدلة داخلية

أ. أكد مرجليوث أن شعراء الجاهلية لم يكونوا كما يبدو عليهم لسان الوثنية، بل كانوا مسلمين في أقوالهم وأفعالهم، ودل الشعر في إشارات إلى قصص ديني قد ورد في القرآن، إضافة أن هذا الشعر ليس فيه الآلهة المتعددة بل فيه التوحيد.

ب. أن اللهجات بين القبائل متعددة، والاختلاف بين لغة القبائل الشمالية واللغة الحميرية الجنوبية كبير، بينما جاء الشعر كله بلغة واحدة وهي لغة القرآن.

هذه بعض الأدلة التي قدمها مرجليوث على أن الشعر الجاهلي هو وليد مرحلة لاحقة لظهور الإسلام وليس العكس. وممن تبنا أفكار مرجليوث طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي"، الذي ألفه سنة 1926م، فراح يدافع ويسوق لأفكار مرجليوث. فأتار كتابه ضجة كبيرة في العالم الإسلامي، فانتقده العلماء مما اضطره الأمر إلى التراجع عن بعض الأفكار فأعاد صياغة العنوان بـ: "في الأدب الجاهلي".

فكانت فكرة الكتاب الأساسية تدور حول إثبات أن الشعر الجاهلي منحول، وأنه لا وجود له في الحقيقة، وعد كل ما يتعلق بالشعر الجاهلي من أيام العرب وأسواقهم وتاريخهم، والشخصيات الموجودة فيه مثل امرئ القيس، وعنترة، وطرفة... وغيرهم هي من باب الأساطير.

لكن هناك من رد على آراء مرجليوث منهم مالك بن نبي في كتابه "الظاهرة القرآنية"، صدر هذا الكتاب باللغة الفرنسية سنة 1946م، فنبه فيه الكاتب إلى خطورة المستشرقين، وتأثيرهم على عقل المسلم، مما دفعهم إلى الشك في الأصول القديمة التي قامت عليها أدلة إعجاز القرآن، وأنهم أتوا بأساليب غاية في الدهاء دمرت الوسائل التي تعين المسلم على إدراك هذا الإعجاز.